المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

في المدارس النحوية

بقلم

محمد حسين آل ياسين

مدرس مساعد في كلية الآداب ـ بغداد

مسالة وجود مدرسة نحوية متكاملة ذات منهج معين باسم (مدرسة الكوفة) من المسائل التي لا تحتاج الى اثبات وشرح وادلة . فقد فرغ من ذلك القدماء انفسهم ، ولكن لم يفرغ بعض المحدثين ، ويظهر من دراسات هؤلاء ان في القضية نظرا ، ومن هؤلاء المستشرق « گوتولد فايل » في مقدمة كتاب (الانصاف) الذي حققه حيث يقول عن الكوفيين : « وهم على النقيض من البصريين ، ليسوا جماعة من النحويين ذات مذهب منهجي معين .. »(١) . وفي هذا تجاوز للحقيقة وجهل بها ، فالكوفيون الذين حفظت لنا كتب النحو واللغة منهجهم في الدرس وفهمهم الخاص لمشكلاتهما المتمثل في اهتمامهم بالنقل والرواية وبعدهم عن القياس البعيد والتوجيه المفتعل والاثر الفلسفي والمنطقي الطاغي وطريقتهم في تفسير الآيات والنصوص وشدة تعلقهم بالقراءات، كل هذا لا يمكن ان يهمل ويطرح جانبا في النظرة الدقيقة الفاحصة . فهم في هذه الخصائص مجتمعة يخالفون المدرسة البصرية التي عرفت بالقياس والتعليلات والتاويلات البعيدة واخضاع القراءة او الآية الى قواعدهم التي وضعوها ، وعدم اعتدادهم بالشواهد القليلة التي تخالف هذه القواعد . افلا يجعل كل ذلك من الكوفيين مدرسة ذات طابع خاص و « جماعة من النحويين ذات مذهب منهجي معين » ؟.

يقول الدكتور شوقي ضيف في الرد على قولة (فايل) : « أما ما زعمه فايل من ان الكوفة لم تكن لها مدرسة نحوية خاصة فقد بنى زعمه فيه على كثرة الخلافات بين ائمتها على نحو ما سيلقانا بين الكسائي وتلميذه الفراء ، وكانها لا تؤلف جبهة علمية موحدة ، انما كل ما هناك اتجاه للخلاف على البصرة تمادوا فيه . وهو دليل منقوض فقد كان نحاة الكوفة يكونون جبهة طالما تناظر افرادها مع افراد جبهة البصرة ، واكثر ابن جني وغيره من ذكر آرائها، بل لقد افرد لها العلماء المصنفات .»(٢)

وفي هذا ما يكفي للرد على فايل هذه القالة التي كان من اسبابها ايضا غير ما ذكر شوقي ضيف عدم اطلاعه اطلاعا كافيا على مادة الكوفيين العلمية مثل كتابي الفراء : (الحدود) و (معاني القرآن) كما صرح هو بذلك ، لانهما لم يكونا مطبوعين على عهد كتابة المقدمة . وربما كان له من هذه الناحية عذر نعتذره له .

(١) مقدمة الانصاف : ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار .

(٢) المدارس النحوية : الدكتور شوقي ضيف . ط دار المعارف بمصر . ص ١٥٦ .

وقد أيد وجود مدرسة الكوفة كذلك الدكتور احمد مكي الانصاري حيث يقول : « فان الذي لا مناص منه ـ فيما ارجح ـ ان المدرسة الكوفية حقيقة تاريخية كانت لها شخصيتها المستقلة في فترة من الزمان »(٣) .

تبقى هناك مسالة اهم من ذلك هي : من هو مؤسس مدرسة الكوفة ومتى استقلت على شكل مذهب منهجي موحد ؟

الذي نراه هو ما رآه الدكتور المخزومي(٤) ، ان مدرسة الكوفة تاسست على يد الكسائي بالوقت الذي تاسست فيه مدرسة البصرة على يد سيبويه الذي كان والكسائي تلميذي الخليل الذي هو لا بصري ولا كوفي بالمعنى الدقيق لهذين الاصطلاحين من الناحية العلمية المنهجية ، لا كماعده القدماء في مصنفاتهم وبعض المحدثين انه راس مدرسة البصرة ، وليس ما يدفعهم الى ذلك الا كونه بصري المدينة فيها عاش ودرس ، وهذا لا يكفي لعده بصري المدرسة ، لان المدرسة وان اكتسبت اسمها من المكان الاول الذي نشات فيه الا انها تتخذ بعد ذلك صفات وخصائص علمية لا علاقة لها بالمكان . فالخليل على هذا ليس بصري المذهب ، ولا نجد في آرائه النحوية ما يؤيد انتماءه الى مدرسة البصرة ، فهو بالوقت الذي يلجا للقياس احيانا ، نراه يعتد اعتدادا كبيرا بالشواهد والمحفوظات التي سمعها من افواه العرب ويبني على « مسموعاته » قواعده ، وجوابه للكسائي الذي ساله عن مصدر علمه يدل على ذلك اذ ذكر له انه اخذه من العرب في البوادي .

فالخليل اذن جامع خصائص ـ ما سمي بعده ـ المدرستين البصرية والكوفية وان لم تكن هذه الخصائص من الوضوح بالشكل الذي انشطر وتوضح عند تلميذيه سيبويه والكسائي ، حيث اهتم سيبويه بعده بجانب القياس ووسعه في (كتابه) بشكل أصبح سمة بارزة في نحوه ، في حين اهتم الكسائي الذي ذهب ينهل من المورد الذي نهل منه الخليل وهو البوادي ، فتوسع على يديه الاهتمام بالرواية والشاهد وان قل والقراءة باعتباره من القراء السبعة فكان بذلك فاتح باب السماع ومؤسس بنيانه . وليس ادل على ما نقوله ـ في ان كلا منهما اسس مذهبا مغايرا ومختلفا عن صاحبه ـ من المناظرة الزنبورية

(٣) الفراء ومذهبه في النحو واللغة : الدكتور احمد مكي الانصاري . رسالة دكتوراه ـ مصر ص٣٥٨ .

(٤) مدرسة الكوفة : الدكتور مهدي المخزومي ط٢ ـ ١٩٥٨ مصر ص ٣٥٧ .

التي تمت بين الكسائي الذي بنى رايه في الرفع والنصب على السماع ، وبين سيبويه الذي تمسك برأيه في الرفع اعتمادا على القياس . وهي وان كانت مسالة واحدة من مسائل النحو الا انها تعطي الصورة المطلوبة عن اتجاه ذهنية كل منهما .

واذا اردنا ان ندرس الظروف التي هيأت كلا منهما لان يتجه هذا الاتجاه نرى ان الجو العلمي في البصرة ودراسات الفلسفة والمنطق التي كان يعيش سيبويه في بحرها وربما خاضها بنفسه ، جعلت من عقل سيبويه عقلا مفلسفا ممنطقا ميالا للتعليل والتقدير والقياس وتقعيد القواعد على اوسع واشهر الشواهد وترك ما دون ذلك . في حين كان الامر بالنسبة للكسائي مختلفا، فهو في الكوفة التي اهتمت بالدراسات الفقهية والاسلامية والتفسير والحديث وكلها معتمدة على النقل والرواية ، اضافة الى كونه قارئا للقرآن واستقل بقراءة عرفت باسمه وصار من القراء السبعة ، فالتصاق الكسائي بحياة النقل والرواية والسماع دفعه الى ان يستزيد منها في البوادي التي ارشده اليها الخليل فعاد وكان طبيعيا أن يكون اتجاهه النحوي هو الذي رأيناه فيما بعد .

أخلص من هذا الى ان ادعاء أن سيبويه راس المدرسة البصرية والكسائي راس المدرسة الكوفية لم يكن عبثا ، بعد ان رأينا من أمر ظروفهما ومنهجهما وطريقتهما المختلفة المتباينة في الدرس والبحث . لا كما عدت بعض الكتب القديمة والمصادر الكثيرة ان المدرسة البصرية تبدأ بأبي الاسود أو عيسى بن عمر او حتى بالخليل ، أو أن المدرسة الكوفية ـ تبعا لذلك ـ بدأت بأبي جعفر الرواسي او معاذ الهراء . فليس بين أيدينا ما يؤيد ذلك لا في نحو هؤلاء الاوائل ولا في اخبارهم ـ هذا اذا كان لبعضهم وجود حقيقي ـ والذي دفع هؤلاء المصنفين والمؤلفين الى الايغال في قدم المدرستين هو التعصب لاحدى المدرستين على الاخرى وبيان أن كلا منهما هي الاقدم وهي السباقة في هذه الميادين . فبعد أن ادعى البصريون أن بدايات مدرستهم هي في أبي الاسود او في تلاميذه ، راح الكوفيون يرجعون مدرستهم الى عصر سبق الكسائي فنسبوا هذه البداية لابي جعفر والهراء . وقد مال الى ذلك حتى بعض المحدثين منهم الدكتور احمد مكي الانصاري فهو يقول : « غير انني اسجل ميلي الى أنها بدأت بالرؤاسي لاسباب كثيرة لا مجال لها هنا ايضا .. »(٥) .

ومهما يكن من أمر فنحن اعتمادا على ما وصلنا اليه وما وصل الينا نؤيد الراي القائل ان سيبويه راس البصريين والكسائي راس الكوفيين وانه لم يكن قبلهما معالم واضحة لاي من المدرستين وهذا هو ما قال به الدكتور المخزومي كما اشرنا اليه سابقا . غير أن بعض الباحثين المحدثين شطوا فيما ذهبوا اليه من ارجاع مدرسة الكوفة الى مصدرها ومنشاها وعمن اخذ علماؤها . ف (كوتولد فايل) محقق الانصاف يرى أن صاحب التاثير الموجه الذي رسم للكوفيين منهجهم واختلافهم مع اساتذتهم البصريين هو يونس بن حبيب ، فهو يقول « وفي هذا الاتجاه يغلب على الظن أن يونس بن حبيب كان صاحب التاثير الموجه في كلا الكوفيين الكسائي والفراء .. »(٦) . اما الدكتور شوقي ضيف فيرى غير هذا ، اذ أن الموجه البصري الذي كان صاحب التاثير في نشوء المذهب الكوفي هو الاخفش سعيد بن مسعدة حيث يقول : « والحق أننا اذا أردنا ان نبحث بين البصريين عن موجه للكسائي والفراء في انشاء المذهب الكوفي مثل توا امامنا الاخفش الاوسط الذي روى عنه الكسائي امام الكوفة كتاب سيبويه »(٧) . واما الدكتور أحمد مكي الانصاري فانه جاء بشيء جديد هو أن الفراء ـ وهو تلميذ الكسائي والسائر على نهجه والمتمم لبناء قواعد مدرسة الكوفة ـ هو مؤسس المدرسة البغدادية في النحو التي يرى أنها امتزاج المدرستين البصرية والكوفية فهو يقول : « سنرى الفراء قد جمع بين خصائص المنهجين ولهذا كان المؤسس الحقيقي للمدرسة البغدادية فيما ارى .. »(٨) . ويقول في مكان اخر : « وكذلك نشأت مدرسة بغداد ، بدأت بالتدريج حتى استوى أمرها عند الفراء فجلعناه المؤسس الحقيقي لها .. »(٩) .

والان نحاول أن نتبين مدى صحة آراء هؤلاء الدارسين لكي نصل من ذلك الى حقيقة الامر . ف (فايل) في قوله أن يونس بن حبيب هو صاحب التاثير الموجه في الكسائي والفراء قد جانب الصواب ، الا انه يحاول ان يجد الدليل في قوله : « ومما يؤيد هذا اولا ملاحظة ان يونس وحده هو الذي يظهر بين النحويين القدماء على انه يمثل آراء الكوفيين (في جميع المواضع التي يسميه ابن الانباري فيها يمثل اراء الكوفيين كذلك ذكره صاحب المفصل خمس مرات من سبع في جانب الكوفيين) ثم ما ذكره ابو سعيد السيرافي في طبقات النحويين(١٠) ، كما روى ذلك عنه السيوطي في بغية الوعاة ص٤٢٦ حيث قال : وله قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها سمع منه الكسائي والفراء »(١١) .

وهذا الدليل الذي ساقه لا يكفي لاثبات ان يونس بن حبيب هو الموجه للكسائي والفراء وانه صاحب بدايات مدرسة الكوفة . فاتفاق قليل جدا من ارائه النحوية مع اراء الكوفيين لا يدل على كوفيته ، وفي البصريين اكثر من واحد كان له اراء تتفق مع اراء الكوفيين ، وليس يونس اكثر هؤلاء البصريين اتفاقا مع الكوفيين من غيره ، بل على العكس فالاخفش مثلا كان كثير الاتفاق معهم في ارائه قياسا على يونس . ففي الوقت الذي يدعي فايل أن صاحب المفصل ذكره في جانب الكوفيين خمس مرات من سبع نجد أن الاخفش يذكر ثلاثين مرة بجانب الكوفيين اذا جمعت اراؤه المتفقة معهم من اكثر من مكان . عدا ان كتب التراجم وكتب الخلاف تذكر مواطن الخلاف بين الكوفيين والبصريين ولا تذكر الاتفاق ، ولو ذكرت مواضع الاتفاق كلها لذكرت لنا كثيرا من الاتفاقات بين الكوفيين وسيبويه نفسه في اكثر من خمس مواضع هي اتفاق يونس بالكوفيين ، ولا يمكن أن نسمي سيبويه كوفيا لهذا السبب ، ولا الاخفش كوفيا لاتفاقاته الثلاثين معهم ، وقد عده فايل نفسه ـ اعني الاخفش ـ بصريا صميما سار على نهج سيبويه ودعم طريقته ووسع قياسه . اذن ـ ومن هذا الجانب ـ لا يمكن ان يكون يونس هو صاحب التاثير الموجه بالكوفيين وقد وافقهم في اربع أو خمس مسائل في النحو لا غير .

تبقى مسالة اخرى ادرجها (فايل) في ادلته هي تلمذة الكسائي والفراء ليونس بقوله ناقلا عن البغية ص ٤٢٦ :

---

(٥) الفراء : ص ٣٥٧ .
(٦) مقدمة الانصاف المترجمة .
(٧) المدارس النحوية ص ١٥٥ .
(٨) الفراء ص ٣٦٣ .
(٩) الفراء ص ٣٦٤ .
(١٠) اخبار النحويين البصريين : للسيرافي ط١/سنة ١٩٥٥ ـ مصر ص ٣٤ .
(١١) مقدمة الانصاف المترجمة .

« حيث قال : وله قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها سمع منه الكسائي والفراء . كما يشهد بذلك ايضا ما رواه السيوطي حيث ترجم للفراء ص ٤١١ من كتابه بغية الوعاة اذ قال : وأخذ الفراء عن يونس . »(١٢) .

وهذه ايضا لا يؤيدها دليل تاريخي ولا تسندها الاخبار . فالذي نعرفه من امر الكسائي ويونس ان الاول تلمذ للخليل وأخذ عنه كثيرا ، وأرشده الخليل الى الاخذ عن الاعراب في البوادي فتوجه لهم ـ كما مر بنا ـ ولما عاد الى البصرة ووجد الخليل قد مات ويونس قد تصدر المجلس قصده وتناظرا بمسائل اقر له يونس بها وصدره في موضعه(١٣) ، فكان له ندا ومساويا في العلم ، حتى ان طلاب يونس في حلقته الدراسية توجهوا للكسائي بأسئلتهم يجيبها واحدة واحدة واتعبوه حتى منعهم يونس عن اذى جليسهم ، فلا يمكن أن يتوجه الطلاب بأسئلتهم الى من هو في مستواهم الدراسي الا ان يكون استاذا وندا لاستاذهم أو من هو في هذا المقام العلمي .

والفراء ـ تلميذ الكسائي والاخذ عنه والمتتلمذ عليه والمتمم لبناء الكسائي ـ هو الاخر قصد البصرة كما كان يقصدها طلاب المعرفة في الامصار العلمية انذاك ، فهي منارهم ومقصدهم ، وخصوصا من كان يريد الاستزادة والتعمق في الدرس ، فلم يلق فيها اكبر من يونس ولا أعلم ، لان الخليل كان قد مات قبل مجيئه اليها ، وجلس يونس مجلسه ، فكان من الطبيعي أن يتصل به ويقف على ما عنده من اراء لا على سبيل التلمذة والاخذ المباشر ولكن على سبيل الاطلاع والاستزادة ، فهذه الصلة بيونس كصلة الكسائي به لم تكن صلة تلمذة ودوبان في شخصية يونس كماصورت وانما صلة ندّين لهمناظرين، بمستواه العلمي. ولم يطل لقاء الفراء بيونس طويلا عاد بعدها الى بغداد .

نخلص من ذلك الى ان علاقة الكسائي والفراء بيونس لاتسوغ لنا أن نقول كما قال فايل ان يونس « صاحب التأثير الموجه في كلا الكوفيين الكسائي والفراء » ، والذي أوهمه ذلك هو ما رآه من استقلال علمي طيب في شخصية الفراء او حتى في شخصية الكسائي عن اساتذتهما واندادهما البصريين كالخليل وسيبويه ، او بينهما انفسهما وكلاهما كوفي . فدفعه ذلك الى ارجاع هذا الاستقلال الى بصري اتصلا به وقيل فيه « له قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها »(١٤) وفاتته دون ذلك كل ملابسات الموضوع وكل الظروف التي دفعت كلا من سيبويه والكسائي الى اتخاذ المذهب او الطريقة التي سار عليها كل منهما في البحث . وكأنه استكثر على الكسائي ان يكون صاحب مذهب دون ان يكون لبصري يد فيه ، وذلك منه صدى واضح واثر طبيعي لتعصب المصادر القديمة ـ التي هي مادة بحثه الوحيدة ـ وتمويهها حقيقة الامر واغفالها الابداع الشخصي .

اما الدكتور شوقي ضيف الذي أرجع التأثير والتوجيه هذه المرة للاخفش الاوسط سعيد بن مسعدة ، هو الاخر بعيد عن الحقيقة ، اذ لا نعرف مصدرا قديما عني بالطبقات واخبار النحويين الا وعد الاخفش بصريا صميما سائرا على نهج علماء البصرة في دراسة النحو واستخراج علله وأحكامه ، ولم يقل احد منهم انه كوفي او قريب من الكوفيين . الا ان الدكتور ضيف حلاله أن يأتي بشيء جديد لا قبل لنا به ، وراح يفتعل هذا التأثير الاخفشي بالكوفيين . وفاته أن الاخفش عندما قدم بغداد ولقي الكسائي كان الكسائي قد انتهى من تأسيس المذهب الكوفي ووضحت معالمه عنده وعرف به . اذ مر بنا أنه تلمذ للخليل وذهب الى البوادي وعاد بمادة وفيرة وأخذ يدرس النحو واللغة استنادا لما جمعه منها ، وبذلك كان واضعا قدمه على عتبة تأسيس المدرسة . عدا ما رأينا من لقيه لسيبويه في بغداد وما اسفرت عنه المناظرة الزنبورية المعروفة ، وما كان من معناها العميق في فهم كل منهما لمنهج الدرس النحوي . فلا يمكن بعد كل هذا أن يأتي الاخفش ويؤثر أو يوجه الكسائي الوجهة التي كان قد بدأها قبله ، خصوصا وأن الاخفش جاء ليثار لسيبويه خذلانه مع الكسائي نفسه فالاخفش بهذا الدافع بصري يقف من الكسائي في الجانب الاخر جاء ـ وتحت أبطه كتاب سيبويه ـ ليرد حق البصريين اليهم . أما أن يكون اتفاقه مع الكوفيين بثلاثين مسالة أحصاها الدكتور ضيف فهي ايضا لا تقوم دليلا على ذلك كما لم تقم من قبل المسائل الخمس التي وافق بها يونس الكوفيين ، اذا عرفنا ان هناك اتفاقا حتى مع سيبويه اكثر من ان يحصى . واكبر الظن أن مثل هذا الاتفاق في الثلاثين مسالة انما يعود لتأثره بالكوفيين .

والنحو في الحقيقة شيء واحد سواء درسه البصريون او الكوفيون ، غير أن الخلاف في الفروع لا في الاصول ، وهذه الفروع هي التي شكلت الجبهتين ، فليس بعيدا أن يكون هناك اتفاق كبير جدا في هذه الفروع دون ان يمس ذلك كون الجبهتين العلميتين على خلاف كثير أيضا وفي المنهج على وجه الخصوص ، ومسالة الاخفش من هذا الباب . فالاخفش جاء متأخرا عن بدايات تأسيس المدرستين ، أو بعبارة أدق كانت المدرستان قد تأسستا قبل ولوجه عالم النحو واللغة في بغداد ـ لاننا لم نعرفه نشطا ولا لامعا قبل مجيئه الى بغداد ـ وما هو الا حلقة من حلقات المدرسة البصرية .

وكونه درس كتاب سيبويه للكسائي مقابل خمسين أو سبعين دينارا ـ ان صحت هذه الرواية التي تذكرها بعض المصادر(١٥) ـ فذلك أيضا ليس دليل تاثر ولا توجيه من الاخفش في الكسائي ، والكتاب كتاب سيبويه وليس كتاب الاخفش . وكل ما هنالك ان الاخفش كان مالك الكتاب الوحيد، وأراد الكسائي المكتمل النضج والمذهب أن يطلع عليه ويرى ما فيه فأفراه اياه . مع ملاحظة طيبة من الكسائي لمساعدة الاخفش ماديا ، حيث كان الاخير في أول قدومه من البصرة الى بغداد فقيرا محتاجا (يذهب في كتبه مذهب التكسب) ، فكان ما دفعه له الكسائي بمثابة العون ، اضافة لما نقوله ونراه من حاجة الكسائي لمعرفة مظان الكتاب لما يتمتع به من صيت ونفاسة وربما لو كان الكتاب شائعا متداولا بين الناس لاقتناه ودرسه دون حاجة للاخفش ، خصوصا وأن الكسائي تلميذ الخليل وزميل سيبويه ، فلا يصعب عليه فهم مادة (الكتاب) ومعرفة غوامضه وقد مرت عليه جميعها وسمعها من فم الخليل .

والغريب أن شوقي ضيف نفسه قد عد الاخفش في غير هذا الموضع بصريا مهما ، يقول : « وهو اكبر أئمة النحو البصريين بعد سيبويه »(١٦) ، ويبدي رأيه في المناظرة الزنبورية التي

---

(١٢) مقدمة الانصاف : فايل .
(١٣) معجم الادباء : ياقوت الحموي .
(١٤) بغية الوعاة : للسيوطي ط ١ سنة ١٣٢٦هـ مطبعة السعادة / مصر . ص ٤٢٦ .
(١٥) طبقات النحويين واللغويين : للزبيدي تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ط ١ سنة ١٩٥٤ ص ٧٤ .
(١٦) المدارس النحوية ص ٩٥ .

حدثت قبل مجيء الاخفش الى بغداد ولقيه الكسائي ، يقول : « والمهم أن هذه المناظرة ارست اصلا من أصول المدرسة الكوفية، وهو الاخذ باللغات الشاذة المخالفة للاقيسة البصرية من جهة وللشائع المتداول على افواه العرب من جهة ثانية .. »(١٧) . كما يحاول أن يخفف من حدة رأيه السابق في تأثير الاخفش بالكسائي والكوفيين وكأنه اراد أن يتراجع قليلا فقال : « والحق أن الاخفش لم يبعث هذا الاتجاه في نفسه لاول مرة ، فقد كان اتجاها قديما في صدره منذ قعوده للقراءة والتعليم في الكوفة ، ورأينا اثاره في مناظرته مع سيبويه ، ولكنا نؤمن بأن الاخفش هو الذي دفعه دفعا في هذا الاتجاه .. » (١٨) . الى ان يقول متحدثا عن الكسائي : « لا ريب في أن الكسائي يعد امام مدرسة الكوفة ، فهو الذي وضع رسومها ووطأ منهجها . »(١٩) .

من هذا نخلص الى أن الدكتور شوقي ضيف مع اعتقاده بأن الاخفش أكبر ائمة النحو البصريين بعد سيبويه ، وأن المناظرة الزنبورية ارست أولى قواعد المذهب الكوفي ، وأن الكسائي كان معدا نفسيا وعلميا لهذا الاتجاه قبل معرفة الاخفش وانه امام مدرسة الكوفة وواضع رسومها ومؤطىء منهجها ، أقول مع اعتقاده بهذا فهو يري رأيه الذي ناقشناه من أن الاخفش هو موجه الكوفيين ، ولا أدري كيف يجمع بين أقواله التي يناقض أحدها الاخر ويجيب أحدها على الاخر . نعم حاول أن يتخذ من المسائل الثلاثين التي اتفق فيها رأي الاخفش مع اراء الكوفيين ذريعة لهذا الذي يريد أن يثبته بالرغم من كل الظروف الاخرى المحيطة بالمسالة والتي رأينا انها تنفي نفيا اكيدا هذا الزعم وتثبت الشيء الذي قلناه اولا من أن الكسائي بعد تلمذته للخليل وسفره الى البوادي وبحكم ظروفه البيئية والعلمية هو مؤسس المدرسة الكوفية دون تأثير الاخفش أو توجيه يونس أو غيرهما .

واما الدكتور أحمد مكي الانصاري فقد رأى ـ كما مر ـ أن الفراء جمع خصائص المدرستين وامتزجت عنده وظهرت بشكل مذهب جديد هو المدرسة البغدادية . وفي رأيه أن جذور المدرسة البغدادية موجودة عند عيسى بن عمر الذي جمع الى منهج البصريين منهج الكوفيين ، ثم وجدها عند ابي زيد الانصاري الذي اخذ عن علماء المذهبين ، ثم عند يونس بن حبيب الذي يراه « مثلا جيدا للخروج على المدرستين البصرية والكوفية معا »(٢٠) وأنه نواة المدرسة البغدادية ، ثم وجد في الاخفش الاوسط طورا جديدا من أطوار المذهب البغدادي ، ثم يجعل الكسائي نفسه جامعا « بين المذهبين على صورة ما »(٢١) ، مستعينا عليه باقوال اقتطعها قطعا مشوها واقتسرها قسرا من كتاب (مدرسة الكوفة) لتؤيد رأيه ، حتى يصل الى الفراء الذي كان في نظره « المؤسس الحقيقي للمذهب البغدادي »(٢٢).

في هذا كله خلط عجيب وابتعاد عن الروح العلمية الدقيقة، فمتى كان عيسى بن عمر بصريا ليجمع الى بصريته منهج الكوفيين ، وعيسى هذا استاذ الخليل الذي نحن نتفي حتى عنه أن يكون بصريا ، وانما البصري تلميذه سيبويه ، فكيف يكون استاذ الخليل بصريا يجمع بين المذهبين . والدراسات النحوية واللغوية في عصر عيسى بن عمر نلمح فيها ـ وهذا طبيعي ـ آثار المدرستين اللتين نشأتا بعدئذ ، لانه لابد من اساس تتفرع منه المدرستان ، وهذا الاساس هو الجامع لخصائص الفرعين . فلا يمكن أن نسمي هذا الاساس ـ بعد أن نرى خصائص جديدة متفرعة عنه ـ بانه كان نواة مذهب ثالث تكون من اتحاد المذهبين والجمع بينهما .

أما بالنسبة لابي زيد الانصاري الذي يدعي الدكتور الانصاري : « انه ما كان يعرف العصبية المذهبية ، بل كان ياخذ عن الكوفيين كما كان ياخذ عن البصريين »(٢٣) فانه لم ياخذ شيئا عن الكوفيين من نحو أو لغة ، وكل ما في الامر انه روى في كتابه (النوادر) أبياتا انشدها اياه المفضل الضبي ، لان الدكتور الانصاري ارجع في الهامش تأييدا لقوله الى كتاب (اخبار النحويين البصريين للسيرافي) ، وعند رجوعي له وجدت ما نصه : « ولا نعلم احدا من علماء البصريين بالنحو واللغة اخذ عن أهل الكوفة شيئا من علم العرب الا أبا زيد فانه روى عن المفضل الضبي .. » (٢٤) ويذكر بعد ذلك ثلاثة أبيات رواها ابو زيد عن المفضل . فرواية ثلاثة ابيات أو حتى مائة عن راوية كوفي لا يعني أنه درس النحو واللغة على علماء الكوفة بحيث جمع الى آرائه البصرية اراء كوفية تعده لان يكون حلقة من حلقات تأسيس المدرسة البغدادية وكل ما هنالك رواية اشعار بعض العرب عن المفضل الذي لم يعرف عالما بالنحو . والرواية غير النحو الذي هو مدار المدارس النحوية ، وعبارة الخبر صريحة (أخذ عن أهل الكوفة شيئا من علم العرب) ولم تقل أخذ شيئا من النحو أو ما أشبه النحو. عدا أننا لا نعرف عن ابي زيد انه وافق الكوفيين في رأي من الاراء النحوية ، وكل الذي نعرفه انه : « كانت حلقته بالبصرة ينتابها الناس »(٢٥) ، فهو نحوي بصري روى عن المفضل شيئا من الشعر .

واما يونس فقد مر بنا امره سابقا ، والدكتور الانصاري استغل ما قيل فيه من أنه « له قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها »(٢٦) وراح يعد ذلك : « نواة المدرسة البغدادية في طور من اطوار نشأتها الاولى قبل النضج والاستواء »(٢٧) .

ولا نريد أن نكرر أنه وافق الكوفيين في خمس مسائل في النحو لا تعد توجيها وتأثيرا بهم ، كما لا تعد جمعا لاراء المدرستين وخلطا لها حين أراد الدكتور الانصاري ان يعدها نواة مدرسة بغداد . وكونه تفرد في مسائل معينة في النحو وله قياس فيه لا يخرجه من مدرسة البصرة التي كانت تشكل جبهة موحدة بالرغم من وجود الابداعات الشخصية والاستقلال الفردي بين علمائها على نحو ما هو موجود بين رجال مدرسة الكوفة ايضا كالكسائي والفراء وغيرهما .

وأمر الاخفش الذي رأى فيه المؤلف : « طورا جديدا من أطوار هذه النشأة »(٢٨) لا يختلف عن امر يونس فقد مرت بنا ظروفه ، فهو الاخر بصري وافق الكوفيين في مسائل وصلت الى ثلاثين مسألة وخالفهم فيما عدا ذلك من مسائل النحو الكثيرة

---

(١٧) المدارس النحوية ص ١٧٤ .
(١٨) المصدر نفسه ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .
(١٩) نفسه ص ١٧٥ .
(٢٠) الفراء ص ٣٦٤ .
(٢١) المصدر نفسه ص ٣٦٦ .
(٢٢) نفسه ص ٣٦٦ .
(٢٣) الفراء ص ٣٦٤ .
(٢٤) اخبار النحويين ص ٤٥ .
(٢٥) اخبار النحويين ص ٤١ .
(٢٦) البغية ص ٤٢٦ .
(٢٧) الفراء ص ٣٦٤ .
(٢٨) المصدر نفسه ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

واتفاقه هذا ليس بالامر الغريب فوجوده في بغداد ، وكان فيها انذاك الكسائي امام المدرسة الكوفية ، واحتكاكه به جعلـه يقتنع ببعض اراء المدرسة الكوفية ويتبناها . ولكن ليس معنى ذلك انه خرج عن كونه بصريا عمق المذهب البصري ونشره بتدريسه كتاب سيبويه وشرحه ، كما عرف ايضا بذلك من خلال كتبـه التي الفها في بغداد ، وليس معنى ذلك انه خلط المذهبين وانه حلقة اخرى أو طور جديد من أطوار نشوء المذهب البغدادي . ويظهر أن المؤلف نفسه احس بذلك فراح يحاول ان يدفع هذا الظن فقال : « غير ان ظهورها عنده ما يزال فجا لا يستطيـع ان ينهض على قدميه ليمثل المذهب الجديد »(٢٩) .

اما الكسائي الذي عده المؤلف جامعا بين المذهبين عـلى صورة ما ، وانه مرحلة أخرى من مراحل نشوء المدرسـة البغدادية ، فانه اعترف أن ملامح المذهب فيه ضعيفة فقـال : « أما الكسائي فانه وان ظهرت فيه بعض الملامح الا انها كانـت خافتة الى حد كبير »(٣٠) . وراح يتحايل بعد ذلك على الموضوع وينقل النصوص التي يرى أنها تؤيد ما ذهب اليه دون وعي منه لحقيقة تلك النصوص . فهو مثلا يقتطع من كتاب (مدرسـة الكوفة) العبارة هكذا : « أكبر الظن أن الكسائي ... لم يكن نحوه كوفيا خالصا »(٣١) ، وقد أسقط مكان النقاط عبـارة « بالرغم من كونه مؤسس المدرسة الكوفية » وكانه راى أن وجود هذه العبارة يفسد عليه فائدة النص الذي يريد أن يستغله وهو يعلم أن مؤلف « مدرسة الكوفة » يرى في الكسائي مؤسس مدرسة الكوفة وليس شيئا اخر ، وكل ما هنالك ان المؤسس لا تظهر عنده خصائص المدرسة بالوضوح الذي تظهر به بعده على ايدي علمائها ودارسيها كما ظهرت عند الفراء مثلا . وكـان الكسائي يعتمد على كثير من اراء شيوخه وخاصة الخليل بحيث خالفه في هذه المسائل من جاء بعده حين اكتمل بناء المدرسـة كما يشرح بهذا المعنى ذلك الدكتور المخزومي في كتابه (مدرسة الكوفة) بعد العبارة التي استشهد فيها صاحب الفراء .

ولكن الدكتور الانصاري أراد ان يخضع نصا اخر لما ذهب اليه مدعيا أن صاحب النص السابق ـ وهو يعني الدكتـور المخزومي ـ قد سبقه القدماء الى ذلك ، فساق لنا قول ابي زيد : « قدم علينا الكسائي البصرة ، فلقي عيسى والخليل وغيرهما ، واخذ منهم نحوا كثيرا ثم صار الى بغداد فلقي اعراب الحطمة فاخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن فافسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله »(٣٢) ، ثم يعلق المؤلف على هذا النص بقوله : « والذي يعنينا من هذا النص هو أن الكسائي جمع بين المذهبين على صورة ما »(٣٣) . ولا ادري كيف يفهم من هذا النص ان الكسائي جمع بين المذهبين على أي صورة من الصور ، ولا ادري كيف يكون هذا المعنى هو الذي سبق ما قاله صاحـب (مدرسة الكوفة) ولا علاقة بين الموضوعين ، علما بان الدكتور الانصاري يقول : « وغني عن البيان ان نشير الى ان ابا زيـد يحكم على نحو الكسائي من وجهة نظره هو ومن لف لفه من البصريين والمتبصرين »(٣٤) ، فاذا كان الامر تعصبا على الكسائي كما يعترف المؤلف فكيف ياخذ به ، بالرغم من أنه لا يمت الـى الشيء الذي يريده بصله ، وانما هو تهجم على المنهج الجديد الذي سار عليه الكسائي بعد رجوعه الى بغداد . فيكون هـذا الذي ساقه المؤلف من نصوص يبرهن بها على (بغداديـة) الكسائي مقتسرة ولا تدلل على الشيء الذي يريده ولا على شيء اخر قريب منه .

والمؤلف يخلص من ذلك كله الى ان : « كل هذه الحركات الفكرية كانت بمثابة الارهاص والتمهيد للمذهب الجديد ، ذلك الذي اكتمل في شخصية الفراء وعقليته .. » (٣٥) . ويسوق بعد ذلك بعض النصوص القديمة والحديثة التي اخضعها اخضاعـا واقتسرها قسرا ، مدعيا أن القدماء والمحدثين سبقوه الى ان الفراء هو راس المدرسة البغدادية وواضع اسسها ، وانه ليس الاول الذي قال بذلك . ولا نريد ان نعرض لما نقله من ذلك فهي ليست أدل واقوى من نصوصه السابقة التي استدل بها على أن المذهب البغدادي تجذر حتى امتدت عروقه لعيسى بن عمر وأبي زيد ويونس وغيرهم .

ويكفي ان نشير الى ان كل كتب التراجم والطبقات دون استثناء عدته كوفيا خالصا تلمذ للكسائي وسار على خطه العام مع الاحتفاظ باستقلاله الشخصي ، كما تلمذ للبصريين شانـه في ذلك شان اغلب العلماء ، لان البصرين هم الاساتذة القدماء ، وهم الذين يجب ان يشد لهم الرحال . واستعراض دقيق لنحو الفراء يقنعنا انه استقل بارائه عن مدرسة البصرة ، وسار على المنهج الجديد المعتمد على السماع والرواية والنقل مع الاستعانة بشيء من القياس والتعليل والاستشهاد بالقليل والكثير . واذا كان قد خالف الكسائي ايضا في بعض ارائه فهذا لا يعنـي بالضرورة انه لم يكن من مدرسة الكسائي ، فظروف الكسائي ـ من حيث هو أحد القراء السبعة وانه تلميذ الخليل وقـد تاثر به تاثرا كبيرا ـ تختلف عن ظروف الفراء بحيث ظهرت على الاخير ملامح جديدة هي في واقعها ملامح اكتمال مدرسة الكوفة ، التي تناولها من بعده العلماء على نفس الصورة والمنهج وأبرزهم ثعلب .

وقد حاول الدكتور الانصاري أن يفتعل مظاهر النزعـة البصرية عند الفراء ، بعد أن سجل مظاهر النزعة الكوفية التي هي من صميم منهجه وعلمه ، فراح يعدد عليه ما حلا له مـن مظاهر ، منها : التقدير والتاويل وعدم القياس على الشاهـد الواحد ، والقياس ، والتهجم على القراءات السبع وغير ذلك مما يرى أنها مظاهر النزعة البصرية في الفراء ، ليثبت بها انه جمع النزعتين في نفسه وأسس المذهب البغدادي .

وهو قد غلا كثيرا في ذلك فالفراء كان شديد النفور من التقدير والتاويل ومن أمثلة ذلك : (وان احد من المشركين ..) كما استشهد بها المؤلف نفسه على تحاشي الفراء للتقدير في مظاهر نزعته الكوفية(٣٦) ، فان وجد انه قدر في شاهد أو أكثر فلا يعني أنه ينزع هذا المنزع . أما عدم قياسه على الشاهـد الواحد فقد نفاه المؤلف نفسه بقوله : « كنا راينا الفراء في بعض الاحيان يقيس على الشاهد الواحد استجابة للنزعـة الكوفية »(٣٧) ، وهذا هو الكثير عند الفراء ، الا اذا كان الشاهد

(٢٩) نفسه ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .
(٣٠) الفراء ص ٣٦٦ .
(٣١) مدرسة الكوفة ص ١١٨ .
(٣٢) أخبار النحويين ص ٤٤ .
(٣٣) الفراء ص ٣٦٦ .
(٣٤) الفراء ص ٣٦٦ .
(٣٥) المصدر نفسه ص ٣٦٦ .
(٣٦) الفراء ص ٢٧٧ .
(٣٧) المصدر نفسه ص ٢٧٨ .

من الضعف والصنع الواضح مايدعوه الى تركه ، وهذا هـو المنهج العلمي الخالص والنزعة الكوفية المعروفة .

واما القياس فهو وان كان من الخصائص الاولى البارزة في دراسة النحو البصري الا ان له اثارا عند الكوفيين قليلة لا يمكن اغفالها ، الا ان هذه الاثار ليست مما يجعل من القياس خصيصة لهم ، وانما لجاوا اليه احيانا ـ كالفراء ـ استجابة لمتطلبات الدرس والبحث . عدا كون الفراء من المتكلمين وقد ترك ذلك في نحوه اثارا واضحة منها القياس ومنها التعليل والتفلسف ، وقد وهم الانصاري ان ذلك من منازع المدرسة البصرية فيه . وحتى الكسائي كانت تظهر عليه روح القياس والتعليل . فلا يعني هذا ان الكوفيين وخاصة الفراء كانوا ينحون منحى مخالفا للكوفيين ، فالمدرسة الكوفية هي هذه . وانما قيل ان القياس والتعليل من خصائص البصريين فذلك لشدته وعمقه عندهم واستحواذه عليهم .

أما تهجمه على القراءات المشهورة وتخطئة الآيات فليس ما يؤيد ذلك بل على العكس ، فنحن ندري انه صحح ما خطاه ابو عمرو في قراءة : (ان هذان لساحران) وقال بها وايدها بما ورد عن بعض العرب أنهم استعملوا الالف مطلقا وذكر شواهد على ذلك واطلق قولته المشهورة «الا اشتهي أن أخالف المصحف». كما ان عرضه للآية (زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركايهم) التي قراها ببعض مصاحف أهل الشام ، دليل على عدم تخطئة القراءة حين راح يدور حولها مقلبا اياها على أوجهها ، ولم يبطلها كما هو موجود عند المؤلف ناقلا الشرح من مصورته (لمعاني القرآن) وفيها عن الفراء : « هذا باطل »(٣٨) ، فليس في المطبوع من معاني القرآن هذه العبارة ، مما يجعلنا نقف منها موقف المشكك .

نخلص من هذا الى أن ما سماه المؤلف « مظاهر النزعة البصرية » عند الفراء ليس هو نزعة بصرية وانما كان بعضه من طبيعة الدرس الكوفي وبعضه الاخر من خصائص الفراء نفسه وكثير منه ليس له أساس ، وبالتالي فالفراء لم يجمع بين المذهبين أو يخلطهما ليؤسس المدرسة البغدادية كما يرى مؤلف (الفراء) ، وليس في بحثه ما يؤيد ذلك لا في استعراضه لجذور المدرسة البغدادية ولا في خصائص الفراء النحوية .

كما نخلص من بحثنا كله ان مدرسة الكوفة حقيقة لا مناص منها ، وانها لم يوجهها وجهتها الكوفية يونس بن حبيب كما راى (فايل) ولا الاخفش كما راى الدكتور شوقي ضيف ، ولم يكن الفراء المؤسس الحقيقي لمدرسة بغداد كما راى الدكتور احمد مكي الانصاري ، وانما النتيجة الصحيحة لكل ذلك هو ما ذهبنا اليه اولا والذي ذهب اليه قبلنا استاذنا الدكتور المخزومي من ان مدرسة البصرة تاسست على يد سيبويه ومدرسة الكوفة تاسست على يد الكسائي وكلاهما تلمذ للخليل ، وما يونس والاخفش الا أعلام في المدرسة البصرية ، وما الفراء الا متمم لبناء مدرسة الكوفة مع احتفاظ كل منهم باستقلاله العلمي وارائه الشخصية دون ان يمس ذلك جوهر المنهجين العامين .

---

(٣٨) الفراء ص ٣٦٠ .